معركة القناة

[ألقاها الشاعر بمدرج علي مبارك بكلية دار العلوم يوم ١٣ يناير كانون ثاني ١٩٥٧ ونالت جائزة الشعر للمجلس الأعلى للفنون والآداب].

بمدفعهِ المغرور قد صال واعتَدى ... وراحَ علينا بالقذائِفِ واغتَدَى
وأغرى بنا عندَ الحدود كلابهُ ... وأرسلَ للعدوانِ يضربُ موعدا
يحاولُ بالتهديدِ إذلال أمةٍ ... وإلقاء شعبٍ في القيودِ وفي الردى
وهيهاتَ، إن النيلَ ضمَّد جرحهُ ... فلم يخْشَ ـ مغلوباً على أمرهِ العدا
تخاذُلُنا وَّلى مع الأمسِ، لم نعدْ ... عبيداً، وكم ذا يصنعُ الخوفُ سيدا

* . * . * . * . *

سلوا(إيدنَ) الموتورَ، ماذا أثاره ... علينا، فأرغى بالحديدِ وأزبدا[1]
لئن ساءهُ أن يأخذَ الحقَّ أهلُهُ ... فمنطقُ الاستعمارِ ما زالَ مُقْعدا
قناتي، وفي أرضي، وجُّدي لحفرها ... أكبَّ على الصحراءِ بالفأسِ مُجهَدا
وفوقَ ثراها فاضَ ماءُ جبينهِ ... وأدمى له جلادهُ الظهرَ واليدا
فلا صلُحت هذي القناةُ ولا جرت ... بحاجاتِ قومٍ لا يمرون سُجَدا

* . * . * . * . *

لكَمْ تحت جُنحِ الليل أبرمَ كيدَه ... وطالَعَهُ تصميمُنا، فتبدَّدا
وشاء خداعَ الناسِ بالإفك إنَّهُ ... تعوَّدَ هذا الأمرَ فيما تعودا

---

(١) (ايدن) : هو رئيس وزراء بريطانيا وقت العدوان ١٩٥٦ م.

ونحنُ من الأحداثِ في عدةٍ نرى تشاحُنَ أطماعٍ ولؤماً مجسدا
وحينَ كشفنا للأنامِ قناعَهُ وعُرِّيَ عن ثوب الدهاء الذي ارتدى
تطاول حتى سعَّر النارَ ظالماً وإن تكُ ناراً قد أضاءت لنا الغدا
وذاقَ شياطينُ المظلاتِ بأسنا فأوردَهم بحراً من الهولِ أسودا
وقاومهمْ شعبٌ إذا سيمَ خطةً من الذلِّ لا يُلقي إلى الذلِّ مِقْوَدا
مؤامرةٌ كانتْ أعدتْ فأُحكمت ولكنَّها ضاعتْ على بابِنا سدى
وما قَدروا إقدامنا حقّ قدرِهِ فَأُحبطَ ما قد دبَّروهُ وأُفسدا
وكائنْ وقَفنا في لظى الحربِ وقفةً نجسِّم منها للبطولةِ مَشْهدا
بكلِّ فتىً يهفو إلى الدمِ سيفُهُ فلا ينثني حتى يروِّي له صدى
كتائبُ إن طالعتَها يوم زَحفِها تُرَوِّعْكَ من إيمانِها النارُ والمُدَى
كذلكَ نحمي النيلَ من كل طامعٍ ونسعى إلى العلياءِ كهلاً وأَمْردا

* . * . * . * . *

وفي الساحلِ المخضوبِ قامتْ مدينةٌ تسطِّرُ أمجاداً وترفعُ سُؤْدُدا
فلم تَخش نسر الجوِّ يرسلُ فوقها شُواظاً بها شبَّ الضرامُ وأوقدا
ولم ترهبِ الأسطولَ والحتفُ جاثمٌ على ظهره يسعى إليها مُهددا
فكم هابطٍ في كفِّه الموتُ مُذ هوى تلقَّفهُ رامٍ لهُ وتصيَّدا
وكانت لهم (دنكرك) أخرى ولم تكن كـ «باريس» للألمان صيداً معبدا

* . * . * . * . *

ألا إننا نهوى السلامَ، فلمْ نجد مجالاً لكي يبقى لنا السيفُ مغمدا
ولم نكُ مختارينَ عند امتشاقِهِ ولكننا نأبى المذلةَ موردا
مددنْا أكُفَّاً للوداد، وإننا على الرغم منا أن نمدّ المهندا
همُ القومُ بغياً أقبلوا في حماقة علينا يزجُّون الخميسَ المزوّدا
وعدُّوه جرماً أن نحاول عزةً فلا يقبلُ الشعبَ الحياةَ مُقيدا
أولئكَ تجارُ الحروبِ، إذا محوا بتضليلهم للناسِ عاراً تجددا

تـرنّـحَ ركنُ الأمنِ تحت لـوائِهم وإن شَغَلوا في مجلس الأمنِ مقعدا
وسِيقَ إلى سـاحِ المعـارك فتيـةٌ يـؤَّدون أخذ العيش حُباً مـوَّطدا

* . * . * . * . *

فربَّ أبٍ قد كـان يَهوى وليـدَه ويؤثرُ أن يَرعى له الغصنُ أملدا
فـأُرسـل مصفـوداً، ليَـطْعَمَ حتفَـهُ على يد شعبٍ ما أغارَ ولا اعتدى
وكمْ من فتىً ما كان يهجرُ عن رضاً حيـاةً بها غنَّى الـوئامَ.. وغـرَّدا
أطاحوا بِهِ في لجة الحربِ مرغماً بـريئاً، ومـا يجـديـهِ أن يتمـرَّدا

* . * . * . * . *

وفي موكبِ البعثِ الذي قد تجاوبَتْ أحاسيسُهُ في الناس كالصوت والصدى
طغى وقعُ أقدامِ الشعوبِ كريمةً على صـوتِ جبارٍ بغى وتـوعـدا
وخلفَ ضبابِ الظلم يلمعُ بارقٌ بـهِ أمـلٌ للثـائـرِ الحـرِ قـد بـدا
وأسمعُ لحنَ النصرِ في كلِّ أمةٍ مُكبـلةٍ فـوقَ الـشـفـاهِ تـردَّدا
فمصرُ لنا ـ لا للطغاةِ ـ ومن أتى لها غازياً لا يُدركُ العَـودَ أحمدا

* . * . * . * . *